﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [النّحل: 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـلاقـة تسخير الكون للإنسان باختلاف ألوان النّبات مع وحدة الأرض والماء

لمّا نبَّه سبحانه على معالم السَّماوات، نبَّه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبةِ والأشياءِ المختلفة، من الحيواناتِ والمعادن والنَّباتاتِ والجماداتِ على اختلاف ألوانِها وأشكالها، وما فيها من المنافع والخواصِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرَأَ﴾: للفعل (ذرأ) أصلان: أحَدُهُما لَوْنٌ إلى البَياضِ، والآخَرُ كالشَّيْءِ يُبْذَرُ ويُزْرَعُ، فالأوَّلُ الذُّرْأةُ، وهوَ البَياضُ مِنْ شَيْبٍ وغَيْرِهِ، والأصْلُ الآخَرُ: قَوْلُهُم ذَرَأْنا الأرْضَ؛ أيْ: بَذَرْناها، وزَرْعٌ ذَرِيءٌ، ومِنْ هذا البابِ: ذَرَأ اللّه الخَلْقَ يَذْرَؤُهُم، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشّورى: 11][2]، والذَّرْءُ: إظهارُ اللّه تعالى ما أبداه، يُقال: ذَرَأ اللّه الخَلْقَ؛ أيْ: أوجد أشخاصَهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: 179][3]، والذَّرء في الآية معناه: الخَلْقُ بالتّناسل والتَّولُّد بالحمل والتّفريخ[4].

2) ﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾: أصل (لون) سَحْنَةُ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ: اللّونُ لَوْنُ الشَّيْءِ، كالحُمرَةِ والسَّوادِ، ويُقالُ: تَلَوَّنَ فُلانٌ: اخْتَلَفَتْ أخْلاقُهُ، واللَّوْنُ: جِنْسٌ مِنَ التَّمرِ، واللِّينَةُ: النَّخْلَةُ، مِنْهُ، وأصْلُ الياءِ فِيها واوٌ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 561، 562.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ذرأ).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ذرأ).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

قالَ اللّه تَعالَى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: 5][1]، ووَرَدَ في القرآن الكريم في مواضعَ كان الكلام فيها عن اختلافِ ألوانِ بعض ما خلق اللّه في الطَّبيعة، كالجبال في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: 27]، والنَّبات في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ [الزُّمر: 21]، والإنسان في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الرّوم: 22]، وهو إشارة إلى أنواع الألوان واختلاف الصّور الَّتي يختصُّ كلُّ واحد بهيئةٍ غيرِ هيئةِ صاحبه، وسَحْناءَ غير سحنائِه مع كثرة عدَدِهم، ويُعبّر بالألْوانِ عن الأجناس والأنواع، يُقال: فلان أتى بالألوانِ من الأحاديث، وتناول كذا ألوانًا من الطَّعام[2]، ومعنى ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أيْ: أصنافه، فإنَّها تَتَخالف باللَّون غالبًا[3].

3) ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾: أصل (ذكر) خِلافُ (نسي)، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، يُقال: ذَكَرْتُهُ بِلِساني وبِقَلْبِي ذِكْرَى بالتَّأْنيثِ وكَسْرِ الذّالِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ؛ أيْ: لا تَنْسَهُ[4]، و(الذِّكر) بالكَسْرِ لَهُ مَعْنيانِ: أحدهُما: التَّلَفُّظ بالشَّيْء، والثّاني: إحْضاره في الذِّهْن بِحَيْثُ لا يغيب عَنهُ، وهوَ ضد النِّسْيان، و(الذُّكر)، بالضَّمِّ: للمعنى الثّاني لا غير[5]، والذِّكر الشَّرف والعلاء، كما خاطب اللّه نبيَّه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزُّخرف: 44]؛ والمُرادُ: القرآن الكريم؛ أيْ: شرفُك وشرفُهم، وذلك أنَّه نزل بلغتهم، وتشريفُه لك أكبرُ من حيث نزل عليك خصوصًا، وأهلُ الذِّكر في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: 7]؛ أيْ: أهلُ العلم من كلِّ أمَّةٍ[6]، وقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أيْ: يتَّعظون ويعتبرون[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من عجائب قدرته سبحانه ما تروْنَه من اختلاف الألوان فيما أخرجه اللّهُ لكم من الأرض وذَرأه فيها من النَّبات الباسق والزَّرع النَّضير؛ حتَّى إنَّك لترى في أوراق الزُّهور

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لون).
(2) الرّاغب، المُفردات: (لون).
(3) البيضاويُّ، أنوار التَّنزيل: 3/ 222.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيّوميُّ، المصباح المنير: (ذكر).
(5) الكفويُّ، الكليّات، ص: 456.
(6) السّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (ذكر).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513، والنَّسفيُّ، مدارك التَّنزيل: 2/ 206.

والورود عددًا من الألوان المُتعدِّدة المتناسقة في الورقة الواحدة، وهذا الاختلافُ في الألوان لسْتَ واجدَه فقط في النَّبات، فيمِّم وجهَك إن شئتَ نحوَ الجبالِ؛ لترى منها الجُددَ البيضَ والحُمر والغرابيبَ السّود، ثم انظر إلى ما ذَرَأَهُ اللّه في الأرض من المعادن المختلفة الألوان في تناسقٍ بديع لكلِّ معدِنٍ منها مع لونه، ثم ارجع البصرِ كرَّتيْن في الشِّعاب المُرجانيَّة وأسماكِ البحار والأنهارِ، وهي أيضًا من جُملة ما ذرأه اللّه للناس في الأرض، لتُبْهِرَك ألوانُها، وكلُّها ناطقة بأنَّه لا إله إلّا اللّه الحكيمُ القدير البديع.

من دلائل التَّذكير بقدرة القدير اختلاف الألوان في الزُّروع والجبال وغيرها

إنَّ في ذلك لحجةً ودَلالة على طَلاقة القدرةِ وعجائبها لقوم سجيَّتهم التَّذكُّر بعد التَّفكُّر، وطبعُهم مراجعةُ النَّفس لو اعترَتْها غفلةٌ أو سَهوة، فمِن فضلِ اللّهِ عليهم في هذه الحالة أنَّهم يذَّكَّرون، وذلك فضلُ اللّه يُؤتيه مَن يشاء.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة عطف الآية على ما تقدَّمها:

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، في موضع نصبٍ عطفًا على ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ على معنى: وسخر لكم ما ذرأ لكم؛ أيْ: ما خلق لأجلِكم فيها من الحيوان والنَّبات وغيرِ ذلك، وهذا الوجه جيِّد[1]؛ وهو الأظهرُ في توجيه العطف.

ما ذرأه الله داخلٌ في جملة التسخير

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

جاءت (ما) موصولة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والتَّعبير بها أجْمَعُ وأخصر، إذ هي من ألفاظ العموم، فتعمُّ كلَّ ما خلقه اللّه تعالى، فأغنى ذِكرُها عن تعداد المذروء.

إيثارُ اللَّفظ الَّذي يُغني وجودُه عن تعداد المذروء

(1) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 105، واكتفى به الزَّمخشريُّ في الكشّاف: 2/ 598، وابن عاشور في التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ذَرَأَ﴾ مادَّة وصيغة:

الذَّرء أبلغُ في البيان وأدلُّ على المُراد

عبَّر البيان القرآنيّ بـ ﴿ذَرَأَ﴾، لِما في الذَّرء من معنى الظُّهور والانتشار، كما مرَّ بيانُه في المُفردات، وأمّا عن سرِّ اختياره ماضيًا؛ فلمُناسبته لـ ﴿وَسَخَّرَ﴾، وهو عاملُ النَّصب في الموصول (ما).

معنى اللّام في شبه الجُملة ﴿لَكُمْ﴾:

التَّنبيه إلى نعمة الإبهاج فيما ذرأه لأجلهم من نبات مختلف الألوان

اللّام في ﴿لَكُمْ﴾ هي لام الاختصاص، وكأنَّه يلفِتُهم بها إلى نعمةِ الإبهاج، فيما ذرأه لأجلهم، وهي نعمةٌ أخرى زائدةٌ على نعمة الخلق للمنفعة، ودليلٌ آخرُ من دلائل القدرة، كما قال سبحانه فيما مضى عن نعمة خَلْقِ المركوب من الدَّوابِّ: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾.

تقديرُ الناصبِ في قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ﴾:

استقلال نعمة النَّبات عن سابقتها من الكواكب والمسخَّرات

قدَّر بعضُهم فعلًا محذوفًا ناصبًا للجملة بدلًا من عطفها على ﴿ٱلَّيْلَ﴾؛ أيْ: وخلق (ما ذرأ لكم)[1]، وفي تقدير الفعلِ المحذوف، مزيدُ بلاغةٍ في استقلال هذه النِّعمة عن سابقتها، وقد يدفعُه كون ﴿ذَرَأَ﴾ معناه (خلق) فيحصُل ما يُشْبِه أن يكون تكرارًا، فيحتاج إلى تعليلٍ كالتَّأكيد[2]، وقد مضى أنَّ الجملة معطوفةٌ على ﴿ٱلَّيْلَ﴾، وأنَّ ناصبَ الموصول هو الفعل ﴿وَسَخَّرَ﴾.

نكتةُ حذف مفعول ﴿ذَرَأَ﴾:

حذفُ المفعول للعموم والاختصار في السِّياق المُحكم

في قوله ﷻ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥٓ﴾ تتجلَّى نكتةُ حذف مفعول ﴿ذَرَأَ﴾ في إفادة العموم والاختصار، دلالةً على كثرته، بحيث لا يلائم المقام حصره ولا إحصاؤه.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تدلُّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على الظَّرفيّة، وهي

(1) السَّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 7/ 199.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 237.

تدلُّ على أنَّ المقصود بقوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ما هو أعمُّ من النَّبات، لكونه ظاهرًا، بل يشمل أيضًا الجبالَ المغروسة في الأرض كالأوتاد، والمعادنَ المُتنوِّعة الَّتي تُستخرج من باطن الأرض، وما لا نعرفه مِمّا تكتنزه الأرضُ في داخلها، ولم يصل إليه النّاس بعد، فهذا المذكورُ كلُّه مختلفُ الألوان، مُتنوِّع الأصناف والخصائص.

الدّلالة على ما هو أعمُّ من النَّبات ككنوز الأرض المُخبّآت

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

جاءت (أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ عهديَّةً دالَّةً على الأرض المعروفةِ كلِّها، وما عليها من مخلوقات ظاهرة وباطنة، وما في داخلها من مخبوء لا يعلمه إلا الله.

الأرضُ معهودةٌ معروفة

الموقع النَّحويُّ لجملة ﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾:

نُصب ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ على الحال، إمّا من (ما)، أو من مفعول ﴿ذَرَأَ﴾، أو من المَنْوِيِّ في الظَّرف إنْ جعلته حالًا، و﴿أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾: مرتفع بقوله: ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ على الفاعليَّة؛ أيْ: مختلفًا هَيْآتُه، أو أصنافه[1].

اختلاف النَّبات والثِّمار في الألوان أعجوبةٌ الخلق في كلِّ مكان

نكتة الفصل في سياق الآية الكريمة:

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾، جاءت هذه الجملة مؤكِّدةً لمعاني ما سبقها في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، وهو سرُّ الفصل فيها.

تأكيد ما سبق يضمن ترابط السِّياق وتلاحم المعاني

غرض تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

اشتمل هذا التَّذييل على عددٍ من المؤكّدات، هدفُها قَرْعُ الآذان لإيقاظ القلوبِ والعقول، ولإفاقتِها من داء الغفْلةِ عن ربِّهم تعالت أسماؤه الَّذي أغرقهم في النِّعم، ثمَّ هم يكفرونها ويكفرون به.

تتابع المُؤكِّدات دليلٌ على أهمِّيّة المُؤكَّد عليه ودوره في إيقاظ القلوبِ

(1) الهمذانيُّ، الكتاب الفريد: 4/ 105.

وهذه المُؤكِّدات هي: إنَّ التَّوكيديَّة، والجملةُ الاسميَّة، والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالَّة على علوِّ المُشار إليه بها، وتقديم شِبْه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾، ودخولُ اللّام على اسم ﴿إِنَّ﴾ وهو قوله ﷻ: ﴿لَآيَةً﴾، والتَّعبيرُ بالمضارع ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ للحثِّ على مواصلة إشغال النَّفس بالتَّذكُّر، لِما قد عَرَضَ له النِّسيان من مواطن العِبَرِ، وموقِظات القلبِ، مع تكرّرُه لتحصيل النَّتائج وتحقيقِ المقاصد.

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

فيما ذكـرَ من نِعَـمٍ كفاية لمن يتذكر

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ قُدِّم شِبهُ الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ للاهتمام وإفادةِ القصرِ على معنى: في هذه الآيات، على وجهِ الخصوص دون غيرِها من الآيات.

معنى اللّام في: ﴿لَآيَةً﴾:

إفـــادة تـوكـيـد الذّكرى من الآية

اللّام في قوله ﷻ: ﴿لَآيَةً﴾ في نهاية الآية الكريمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، هي لام الابتداء الّتي تدخل على المبتدأ، وتُفيد التَّوكيد.

نكتة تنكير لفظ ﴿لَآيَةً﴾ في السّياق:

كلُّ آيةٍ منظورة هـي حـكـمـةٌ في الكون مأثورة

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ نُكِّر لفظ ﴿لَآيَةً﴾ تفخيمًا وتعظيمًا، وذلك لأهمِّيّة ما تدلُّ عليه، وهو الدَّلالة على توحيد واهبِ النِّعم ﷻ.

نكتةُ الإفراد في: ﴿لَآيَةً﴾:

اختلاف الألـوان آيـــةٌ مستقلّة دالّـة على قـدرة الدَّيّان

وإنَّما عاد هنا إلى إفراد ﴿لَآيَةً﴾، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، للدَّلالة على كون اختلافِ الألوان هو آية مستقلَّة عن أصل الخَلق، فلِاختلافِ الألوان، مع اتِّحاد أصل الذَّرء أُفردت الآية[1].

وقيل: إنَّ التَّغاير في هذا وما قبلَه وما بعدَه، تفنُّنٌ في التَّعبير،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 117.

وذلك دفعًا للثِّقل، وإشارةً إلى أنَّ مَن اتَّصف بواحدٍ منها، فقد اتَّصف بجميعها[1].

معنى اللّام في شِبه الجملة ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ اللّام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ هي لامُ التَّعليل، ويُطلق عليها أحيانًا: لامَ الأجْل[2]؛ أيْ: لأجْل هؤلاء القومِ الَّذين يتذكَّرون.

تصدير الجملة بلام التَّعليل موفٍ بالمعنى النَّبيل

فائدة تنكير ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

وفي تنكير لفظ (قوم) في قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ في الآية الكريمة مدحٌ لهم، وتفخيمٌ لشأنهم؛ لكونهم يذَّكَّرون دومًا ما اعتراه النِّسيانُ من عظائم الأمور بحكم تعاقب الأيام وتناوب الليل والنهار.

لا يتذكَّر الأوامر السَّنيَّة إلّا أصحابُ القلوب الحيَّة

فائدة مجيءِ لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

وذَكَرَ لفظ ﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ دون أن يُقال للَّذين يذَّكَّرون أو للمُذَّكِّرين؛ لأنَّ إجراء الوصف على لفظ قومٍ يومِئُ إلى أنَّ ذلك الوصفَ سجيَّة فيهم، وأنَّه من مُكمِّلات قوميَّتِهم[3].

التَّعبير بلفظ (قوم) يدلُّ على أنَّ الوصف سجيَّة فيهم

نكتة ختم الآية بقوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

ختم المولى ﷻ الآية الكريمة بقوله: ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، ومعناه الاعتبار والاتِّعاظ؛ للدَّلالة على وجود علمٍ بذلك سابق طَرَأ عليه النِّسيانُ، فقيل: يذَّكَّرون أي: يتذكَّرون ما نسوا من تسْخير هذه المكوناتِ في الأرض[4]، وقيل في سرِّ ختمِها هذه الآية بالتَّذكُّر، هو أنَّها سيقت كالفَذْلَكَةِ – النَّتيجة – لِما قبلها[5].

التَّعبير بالتَّذَكُّر يشير إلى وجود علمٍ سابق بموضوع التَّذَكُّر

(1) الصّاويُّ، حاشية الصّاويّ على الجلالَيْن: 2/ 285.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 144.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 89.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 513.
(5) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/ 316.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾:

إفادة تجدُّد التّذكّر واستمراره، إحرازًا لفوائده

وفائدة التّعبير بالمضارع في ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ إفادةُ التّجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة العقلِ في التّذكُّر والتّدبُّر والتّأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولِحَثِّ هؤلاء على بذل الوسعِ في المداومة على هذه النّعمة العظمى؛ وفي تكرار التّأمُّل مراتٍ ومرات لأنَّ تكرارَه وخصوصًا مع مَن هو كَلِف به يساعدُ على الوصول إلى فرائدِ المعاني، فالخيرُ كلُّ الخير في المداومة عليه.

كما أنَّ فيه حضًّا لمَن أهملوا نعمةَ التَّذكُّر والمراجعة للنَّفس، أن يتداركوا ما فاتَهم من إهمالها، ليُحَصِّلوا غاياتِها وفوائدها.

وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين الَّذين لم يهتدوا بما في هذه الآيات من دلائلَ واضحاتٍ على تَفَرُّد الله بالإلهيَّة؛ بأنَّهم قوم لا يذَّكَّرون ولا يراجعون أنفسَهم ليتداركوا أخطاءَهم.

علَّة تباينِ الفواصل الثّلاث المتعاقبة:

تمام المُناسَبَة بين كلِّ فاصلة من المذكور وآيتها

رغم أنَّ ما ذُكر في طَيِّ الآيات السّابقة هي دلائلُ قدرةٍ، يندمج فيها الامتنانُ والإنعام، لكنَّ اللافت أنَّ كلَّ آيةٍ منها اختصَّت بفاصلة غيرِ الأخرى، وهذا في الفواصل القرآنيَّة شأنٌ معهود، ففواصلُ الآيات القرآنيَّة هي نتائجُ لآياتها، بحيث ترى كلَّ فاصلة منها هي المُهَيَّأة المُمَكَّنَة في مكانها، القارَّة في قرارها، فلا تغني عنها غيرُها وإن قاربتْها في الدَّلالة، أو اشتركت معها في عمومِ المعنى.

وهذه هي الآياتُ الثَّلاث معروضةٌ للنَّظر في اختلاف فواصلها:

قال تعالى: ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ﴾.

وتفصيل ذلك أنَّه في آية ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾، وهي تتحدَّث عن دلائلَ أرضيَّةٍ جعل الفاصلةَ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ ما على الأرض مُشاهَدٌ مرئيٌّ، وأماراتُه ظاهرة، فيكفي فيه التَّفكُّرُ لأجل شكرِ الله على نعمائه.

فلما انتقل إلى الدَّلائل السَّماويَّة جعل الفاصلة ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ ما في السَّماء لِبُعْدِه وخفائِه، فإنَّه يحتاج إلى ما هو أعلى من التّفكُّر، وهو إعمالُ العقل اللَّبيب، لإدراك حكمةِ الله في نعمائه.

وأمّا فاصلة ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾، فقد جاءت بعد التَّفكُّر والتَّعقُّل لِمَن نسي نتائجَهما الّتي توصَّل إليهما من قبلُ، قال ابنُ عرفةَ: ذهب بعض الحكماءِ إلى أنَّ العلوم كلَّها تذكُّريَّة، وأنَّ النُّفوس كانت عالمةً بكلِّ علم، فلما خالطتِ الأبدانَ ذهب عنها ذلك، فكلُّ ما تعْلَمُه إنَّما هو تذكُّرُ كلِّ ما كان وذهب، ومذهبُ الجمهور أنَّ أكثرَها تفكُّرٌ وبعضَها تذكُّر؛ فالتَّفكُّر لِما لم يعلمه، والتَّذكُّر لِما علمه ونسِيَه، فلذلك جعله ثالثًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ذرأ، وخلق، وأنشأ، وجعل:

التَّعبير بالذَّرء في الآيـــة هو الأنسب والأدلُّ على غرضها

الخلقُ في اللُّغَة: التَّقْديرُ، يُقال: خلقتُ الأديم إذا قدَّرتَه[2]، ويُستعمل في إبداع الشَّيءِ من غير أصلٍ ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]؛ أيْ: أبدعهما، بدلالة قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [البقرة: 117]، ويُستعمل في إيجاد الشَّيءِ من الشَّيءِ، نحو قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النّساء: 1]، ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [النَّحل: 4]، وليس الخَلْقُ الَّذي هو الإبداع إلّا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل بينه تعالى وبين غيره: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النَّحل: 17]، وأصلُ الذَّرء: الإظْهارُ،

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 2/ 344، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 10.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 136.

ومعنى ذَرَأ الله الخلقَ: أظْهَرَهم بالإيجاد بعد العَدَم، ومِنْه قيل للبياض: الذَّرأة لظُهوره وشُهرته، ومِلحٌ ذُرْآنيّ لبياضه[1].

والإنْشاءُ: إيجادُ الشَّيءِ وتربيتُهُ، وأكثرُ ما يُقال ذلك في الحَيَوان، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [المُلك: 23]، وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّجم: 32]، وقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المؤمنون: 31][2].

والجَعْل: لفظٌ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ من (فَعَلَ) و(صَنَعَ) وسائر أخواتِها، في إيجاد شيءٍ من شيءٍ وتكوينِه منه، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [النَّحل: 72]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النَّحل: 81] وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزُّخرف: 10][3].

وبعد هذا العرضِ تظهرُ لنا الفروقُ الدَّقيقة بين هذه المُفرداتِ الأربع، فالخَلْقُ إنَّما هو الإيجادُ والإبداع على غير مثالٍ سابق، ولذلك لا يخلقُ إلّا اللّهُ، أمّا الذَّرء فهو إظهارُ ما خَلَقَ الله، وذلك بإيجادِه وإبراز كونِه من خَلْقِ الله وإبداعه، وأمّا الإنشاءُ فيكاد يكون خاصًّا بالكائن الحيِّ كما وردت الآياتُ بالحديث عنه في خَلْقِ الإنسان، أمّا الجَعْل فهو تعبيرٌ عامٌّ يُمكن إيقاعُه على كلِّ الأفعال، فلا تبقى له خصوصيَّةٌ.

ومن هنا نعلم أنَّ التَّعبير بالذَّرْء في الآية هو الأنْسبُ، لأنَّ الحديث عن إظهار وإبراز قدرةِ الله ﷻ بتعدُّد الألوان فيما خَلَقَه من نباتٍ وغيره، مِمّا يخرج من الأرض، وهذا معنًى لا يؤدّيه بتمامِه إلا الفعل ﴿ذَرَأَ﴾.

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 138.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أنشأ).
(3) الرّاغب، المُفردات: (جعل)، والكفويُّ، الكليّات، ص: 347.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»